مظاهر ثقافية وحضارية في الهجرة المغاربية إلى المشرق العربي.

Cultural and civilization aspects of the Maghreb migration to the Arab Orient.

شرف موسى.

المركز الجامعي نور البشير؛ البيض (الجزائر).

البريد الإلكتروني: *moussa.youth@gmail.com*

تاريخ الإرسال: 22/04/26؛ تاريخ القبول:22/05/19؛ تاريخ النشر:22/06/01

الملخص:

لعب المهاجرون المغاربة دورا فعالا في ازدهار المجتمعات العربية في المشرق على مر العصور والأزمنة، فقد هاجر الكثير منهم إلى المشرق العربي وكان تعدادهم الآلاف، فاتخذوا من أقطاره بيئة جديدة لهم، ولعل أكثر المجتمعات العربية التي استهوت المغاربة بعد أرض الحرمين الشريفين، بلاد الشام ومصر، وبالإضافة إلى ما يجمع المغاربة والمشارقة على حد سواء من روابط الدم والأخوة، والهوية والمصير المشترك، ذلك أن جلهم مسلمين وعرب، هناك دوافع عديدة من وراء هذه الهجرة، يتقدمها أداء مناسك الحج أو طلب العلم أو بغرض العمل والتجارة والاستقرار كذلك، ناهيك عن أسباب أخرى، فرضتها الظروف في بلاد المشرق والمغرب معا، فعندما كان المشرق مسرحا للحروب الصليبية، كانت غاية الجهاد من أسمى الغايات التي سعى المغاربة للظفر بها ونصرة إخوانهم في المشرق، والعكس عندما كان

حوض المتوسط في العصور الحديثة حلبة الصراع الصليبي الإسلامي بين كل من الدولة العثمانية وإيالتها المغاربية وبين القوى المسيحية وعلى رأسها اسبانيا، فقد استهوى هذا الوضع بشغف العديد من المشارقة لنصرة إخوانهم في بلاد المغرب، ولقد عززت هذه الظروف من صور التضامن والتكافل العربي -العربي، مشرقا ومغربا ولم تنقطع بتاتا، بل كانت أكثر لحمة وتماسكا في مقابل الظروف التي جرّتها الحركة الاستعمارية الحديثة على المجتمعات المغاربية خاصة، وفي مقدمتها الجزائر، حينها كان الجزائريون يشعرون أن الهجرة إلى إخوانهم في المشرق، صارت فرض عين، بل واجب، فقد أضحت بلادهم في نظر الكثير منهم دار كفر بعدما كانت دار إسلام.

فما هي المكانة التي وصل إليها المغاربة في المجتمعات العربية في المشرق؟ وما هي الأدوار التي لعبوها في هذه المجتمعات؟ ثم ما هي مظاهر وصور التضامن بين المهاجرين المغاربة والمشارقة في المشرق العربي؟

الكلمات المفتاحية: المهاجرون المغاربة؛ المشرق؛ التضامن؛ مناسك الحج؛ طلب العلم.

Abstract:

The Maghribs Migrants played an active role in the prosperity of Arab societies in the East over the ages and times. There are Tens and hundreds, and thousands of them immigrated to the Arab East and took from their Arab countries a new environment that embraced them. Perhaps the most Arab community that impressed the maghribs after the Land of the Two Holy Places was the Egyptian country. In

addition to the bonds of brotherhood and blood alike, of brotherhood and blood, identity and common destiny, that most of them are Muslims and Arabs. There are many motives behind migration, led by performing the rituals of Hajj or seeking knowledge or for the purpose of work, trade or stability as well**.** not to mention other reasons, For example in the countries of the East and the Maghreb together, when the East was the scene of the Crusades, and the aim of jihad was one of the highest aims that Maghrebs sought To win by them and support their brothers in the Orient, and vice versa when the Mediterranean basin in modern times was the arena of the Islamic and Crusade between the Both of the Ottoman Empire and its Maghreb provinces and the Christian powers, especially Spain, This situation took advantage of the passion of many Arab Easters to support their brothers in the countries of the Maghreb, and it strengthened These conditions, from the forms of Arab and Arab solidarity, and were never cut off. but, they were more Links and cohesion in return for the conditions that the modern colonial movement brought to the Maghreb societies in particular, particularly Algeria, when the Algerians felt that immigration to their brothers in the East became Imposing, but It is a duty, because their country became a Country of Unbelief Polytheism after the Islam.

What is the position of Maghribs Migrants in Arab societies in the Orient? And what roles did they play in these societies? Then what are the manifestations and forms of solidarity between Maghribs and Orientals immigrants in the Arab Orient?

Key words: The maghribs Migrants; the Orient; Solidarity; the rituals of Hajj; seeking knowledge.

تمهيد:

علاقات بلاد المغرب بالمشرق علاقات قديمة ومتشعبة، ضاربة بجذورها في التاريخ، بداياتها الأولى ترجع إلى الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، ومع الوقت أخذت الصلات بين الأقاليم المغاربية والمشرقية تتوثق وتتقوى يوما بعد يوم، مما شجع على الرحلة والتنقل والهجرة بين مختلف حواضرها، وهذا ما استنتجه المؤرخون من خلال رصدهم لحركة الهجرة بين طرفي العالم الإسلامي، لاسيما من المغرب نحو المشرق خاصة مصر وبلاد الشام ما بين القرنين الرابع والخامس الهجريين، ولم تتوقف هذه الحركة طيلة القرون الموالية، تحركها في ذلك جملة من الأسباب والدوافع الداخلية والخارجية، سيأتي التفصيل فيها تباعا(عيساوة، محمد، 2010: 40).

تعددت دوافع الهجرة وأسبابها من بلاد المغرب نحو بلاد المشرق ما بين سياسية واجتماعية ودينية وثقافية واقتصادية، غير أن طبيعة الهجرة في القرون الأولى ودوافعها تختلف عن القرون الموالية لأسباب أخرى تتعلق بالظروف التي آلت إليها بلاد المغرب الإسلامي لاسيما من الناحية السياسية، وتبعات ذلك على أوضاع بلاد المغرب عامة، إذ أرجع الكثير من الباحثين دوافع هجرة المغاربة نحو المشرق في أواخر القرن الخامس الهجري إلى العوامل السلبية التي ظهرت على الساحة العربية في المغرب والأندلس على حد سواء؛ من ذلك: الاضطرابات وسوء الأحوال السياسية من تبدل في أنظمة الحكم، والصراع القائم وقتها بين المرابطين والموحدين وملوك الطوائف، وكذا الآفات والمجاعات والأوبئة التي أصابت بلاد المغرب (عبد المعطي، حسام محمد، 2002: 82 -84)، يرافقها الهجمات الصليبية الإسبانية البرتغالية التي لم تتوان في تحرش ببلاد المغرب إلى أن سقطت الأندلس وسقطت على إثرها

العديد من المدن الساحلية المغاربية ما بين القرنين 15 و16م(عيساوة، محمد، 2010: 40).

وحتى لا نحصر دوافع الهجرة في الظروف السياسية التي كانت مهيمنة على المشهد في بلاد المغرب، فعل الأرجح أنه منذ أواسط القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي وحتى نهاية فترة العصور الوسطى، كان لدى المغاربة نزعة وشغف كبير في طلب العلم، فترك الكثير منهم بلاده وتوجهوا نحو المشرق بغرض طلب العلم. كما ارتحل بعضهم في طلب الرزق والبحث عن لقمة العيش (شباب، عبد الكريم، 2016: 240 -241).

مظاهر التواجد المغاربي في المشرق:

الهجرة الجماعية والاستقرار:

بينت الدراسات التاريخية أنه ابتداء من العهد الفاطمي في القرن 10م إلى غاية القرن17م، كيف أن قبائل مغاربية عديدة هاجرت من بلاد المغرب وانتشرت واستقرت في المنطقة الممتدة من الإسكندرية إلى برقة في طرابلس الغرب، بينما انتشرت قبائل بني وهيب من الإسكندرية إلى العقبة شرقا، وكذلك بالنسبة لقبائل هوارة التي امتد نفوذها في العصر العثماني وخاصة القرن 18م في كامل مناطق الصعيد المصري، إذ صار لديها دوائر نفوذ بين قبائل المنطقة، فساهمت في تنمية الأراضي الزراعية في ظل نظام الأمانات أو المقاطعات الذي أديرت بها الأراضي الزراعية منذ 1069هـ /1658م، وقد أعطيت هذه القبائل حق التزام الأراضي الواقعة في ديارهم، مثلما حدث على عهد السلطان سليم الأول الذي منح لزعيم قبيلة هوارة إمارة (جرجا) هذا الحق، في مقابل التعاون مع الدولة العثمانية، فكانت

قبيلة هوارة بذلك إلى حد بعيد تمثل قبيلة مخزنية متعاونة (عبد الرحيم، عبد الرحيم، 1982: 33 -35).

وتشير المصادر أيضا إلى أن سليم الأول حرص بنفسه على توجيه الدعوة للمغاربة للقدوم إلى مصر منذ ضمها للدولة العثمانية سنة 932هـ/ 1517م، وقد شهدت مصر هجرة واسعة النطاق من البلاد المغاربية إليها، خاصة بعد سقوط دولة الموحدين، وسقوط غرناطة آخر قلاع المسلمين في الأندلس، وما ترتب عن ذلك من سياسة القمع ومحاكم التفتيش التي طالتهم، والتهجير القصري لآلاف المسلمين الأندلسيين إلى بلاد المغرب والمشرق والذي بلغ ذروته على عهد فليب الثالث (1006 -1030هـ /1598 -1621م)، صاحب القرار الشهير في طرد المسلمين، حيث طرد أكثر من 272140 أندلسي مسلم من إسبانيا(عبد المعطي، حسام محمد، 2002: 80 -82).

والجدير بالذكر أن هذه المصادر لا تملك المعطيات الدقيقة عن أعداد المهاجرين الأندلسيين إلى المشرق بالأرقام بل تدرجها في نطاق الكثرة لا غير، خاصة من هاجر منهم إلى مصر والقسطنطينية، وهذا ما ذكره المقري صاحب كتاب نفح الطيب، عن هؤلاء المهاجرين في قوله: "ووصل جماعة إلى القسطنطينية العظمى وإلى مصر والشام وغيرها من بلاد الإسلام" (عبد المعطي، حسام محمد، 2002: 80 -82).

أو كما ورد في مذكرات عروج وخير الدين أن السلطان العثماني بايزيد الثاني أرسل أسطولا بحريا يقوده كل من كمال رايس وابن أخته بيري رايس البحار والجغرافي التركي صاحب كتاب الخرائط الشهير، إلى سواحل الأندلس، لنجدة الأندلسيين المستنجدين به، في رسالة استغاثة وصلته منهم، وعليه فقد نقل عددا كبيرا من

مسلمي ويهود الأندلس وتمّ توطينهم في الأناضول(بربروس، خير الدين، 2010: 62 -63).

وتبقى مصر في مقدمة الأقطار الإسلامية المشرقية التي استقبلت الأندلسيين بقوة، خاصة في المنطقة الشمالية من الدلتا في شمال إقليم الغربية (محافظة كفر الشيخ الحالية)، أين أنشؤوا بها العديد من القرى، إما لأنها كانت معدومة من السكان، أو منخفضة الكثافة السكانية، مثل قرية الحمراء، محلة موسى، سيدي غازي، كفر الشيخ، وقرى أخرى بمركز سيدي سالم، ومركز دسوق وغيرهما، كقرية سد خميس وأبو غنيمة، الحدادي، الناصرية، قطور، المنيل، كفر مجر...، كما استقر الأندلسيون بالجزيرة الخضراء، المعروفة عند المؤرخين باسم المدينة التركية شمالي المدينة القديمة في الإسكندرية، وكان الأهالي يلقبونهم بالمغاربة.

وعرفت طنطا هي الأخرى هجرة أندلسية واسعة إليها، بوصفها معقلا للشيخ السيد البدوي أحد أهم شيوخ المغاربة بها. أما القاهرة فاستقر فيها الأندلسيون في المنطقة الواقعة بين القصرين وباب الشعرية، أين تقع حارة المغاربة(عبد المعطي، حسام محمد، 2002: 82 - 84).

أما عن هجرة الجزائريين إلى بلاد المشرق، فهي لا تخرج عن السياق العام للهجرة المغاربية، غير أن الاختلاف يكمن في فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر، أول احتلال استيطاني في العصر الحديث، عندما وجد العديد من الجزائريين أنفسهم مجبورين على الهجرة، يدفعهم في ذلك الحفاظ على أرواحهم وأعراضهم ودينهم، بعدما أفتى علماء مدينة الجزائر من أمثال الشيخ الكبابطي بوجوب

الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، حيث أضحت الجزائر حينها في نظر هؤلاء العلماء دار كفر.

ومع الوقت أخذت الهجرة في هذه الفترة شكلا آخر، فقد كانت إجبارية عن طريق النفي من أرض الوطن، حدث ذلك للأمير عبد القادر والكثير من أتباعه منذ سنة 1856م، حينما اختار دمشق منفى له بدلا من فرنسا، وفي دمشق لعب الأمير عبد القادر دورا رائد في تمكين الجالية الجزائرية من الاستقرار فيها، كما لعب دورا إنسانيا وحضاريا رائد في الإصلاح بين الطوائف المتناحرة(سبقاق، الطاهر، 2001: 171).

هذا وقد قسم الباحثون هجرة الجزائريين إلى بلاد المشرق على نحو أربع موجات كبيرة، في عهد الاحتلال ما بين 1847م أين بدأت الهجرة الأولى وتنتهي سنة 1914م، هاجر فيها خليفة الأمير عبد القادر أحمد بن سالم ومحمد المهدي السكلاوي شيخ الطريقة الرحمانية والمبارك الطيب ومحمد بن عبد الله الخالدي. أما الموجة الثانية جاءت بعد هزيمة المقراني والحداد سنة 1871م. والثالثة إجبارية، كانت بأمر من سلطات الاحتلال الفرنسي حتى يتمكن من مصادرة الأراضي لصالح المعمرين الأوربيين.

أما الرابعة بين 1900 و1914م، بسبب تضييق الخناق على الجزائريين، مع فرض القوانين الجائرة كقانون التجنيد الإجباري سنة 1911م، الذي سنّ وجوب مشاركة الجزائريين إلى جانب فرنسا في حرب لا تعنيهم لا من قريب ولا من بعيد.

ويلاحظ أن الموجات الأولى للهجرة التلقائية كانت تزخر بالعلماء والفقهاء والمشايخ والعائلات الكبيرة الثرية. أما الموجات الأخرى

اللاحقة فكانت متنوعة فيها الجنود، والفلاحون، والتجار، والعائلات الفقيرة، وقد قدرت الإحصائيات عدد المهاجرين إلى بلاد المشرق في هذه الفترة ما بين 4000 و17500، معظمهم استقروا في بلاد الشام. (سبقاق، الطاهر، 2001: 171).

مناسك الحج:

إن المتمعن في العلاقات بين المغرب والمشرق العربيين في الفترة المدروسة عليه ألاّ يغفل عن الدور البارز الذي لعبته قوافل الحج في توثيق الصلة بين بلدان هذين الإقليمين العربيين(شويتام، أرزقي، 2005. 2006: 246)، ففريضة الحج كانت من أعظم البواعث على سفر آلاف من المغاربة في كل عام إلى الحجاز، وبعد زيارة الحرمين الشريفين كان الكثير منهم يقصدون المقامات المباركة بالمشرق كالمسجد الأقصى بالقدس، وقبر إبراهيم الخليل(عليه السلام)، ثم يعرجون على دمشق ومدائن أخرى من الشام، وطالما زاروا بغداد عاصمة العباسيين بالعراق. وفي رجوعهم يقفون برهة بمصر حيث جامع عمرو بن العاص بالفسطاط، والجامع الأزهر... وعند عودتهم يقطعون مفازة برقة إلى طرابلس – إنْ كان السفر في البر – ثم إلى تونس ومنها ينتهون إلى بلاد المغرب الأوسط أو الأقصى(إفرخاس، محمد، 2016: 11).

وكان رحلات الحج المغاربية مكانة جليلة، فإن المشارقة كانوا يولون لها اهتماما بالغا خاصة التجار منهم، فيقام لأجل قوافل الحج القادمة من بلاد المغرب استقبال مهيب ومعرض خاص، تتم فيه معاملات البيع والشراء(شويتام، أرزقي، 2005 -2006: 246)، وهذا ما جعل بعض السلع المغاربية الأصل تعرف إقبالا كبيرا عليها من طرف المشارقة، ولعل رواج التجارة التونسية وسمعة بعض منتجاتها مثل

الشاشية الحمراء الشهيرة قد لقيت إقبالا وتسويقا على نطاق واسع في المشرق الإسلامي بأكمله (الهادي، محمد الشريف، 1993: 54).

وتعد رحلات الحج عند بعض المغاربة فرصة يطيلون من خلالها الإقامة بالمشرق، إما لغرض التجارة أو الدراسة أو التعليم، وكان وجود أقرباء أو معارف لهم في مصر مثلا يشجعهم على الاستقرار المؤقت أو النهائي(عبد المعطي، حسام محمد، 2002: 82 -84).

كما أن وقوع بعض المدن مثل الإسكندرية في طريق الحج، لعب دورا كبيرا في جلب الكثير من المغاربة إلى مصر، ناهيك عن التواجد الكبير للتجار المغاربة بها، وهو ما ساهم في استقطاب الوافدين من المغاربة إليها أثناء رحلة الحج ذهابا وإيابا، بل شجع ذلك الكثير منهم على البقاء والعمل فيها، حيث كان لهم دور إيجابي وفعال في المدينة على العهد العثماني في مختلف مناحي وأوجه الحياة. ومن خلال سجلات المحاكم الشرعية في الإسكندرية يظهر أن الكثير من المغاربة الوافدين إليها كانوا من أصول أندلسية، بعد أن فروا بدينهم من الاضطهاد الإسباني غداة حروب الاسترداد واستقروا ببلدان المغرب العربي، ثم جاء الكثير منهم إلى الإسكندرية ومدن أخرى في مصر حيث استقروا فيها كما سبق ذكره(عبد الرحيم، عبد الرحيم، 1982: 57).

الرحلات العلمية:

تعد الرحلة إلى بلاد الحجاز رافدا من روافد التواصل بين أهل المغرب وأهل الحجاز لاسيما في شقها الثقافي، وسواء كان ذلك في طابعها الرسمي الذي كان يحظى باهتمام الحكومات، أو في طابعها الشعبي الذي كان ينظّمه أصحاب الزوايا والطرق، وفي كلتا الحالتين

كانت هذه الرحلات تزخر بالعلماء والأدباء الذين كانوا يشدون الرحال لأداء مناسك الحج وزيارة الحرمين الشريفين، مع السعي في طلب العلم ولقاء العلماء(شرف، موسى، 2017: 82).

وما يلفت النظر في هذا الموضوع أنّ الجانب الثقافي والعلمي ظل باعثا قويا في نفوس المغاربة خلال العصر الحديث، على الرغم من بعض الوهن الذي أصاب العلم في المشرق الإسلامي في ظل الحكم العثماني، وتذكر كتب التراجم المشرقية والمغربية أن تدفق طالبي العلم من المغاربة على بلاد المشرق وتركيا لم ينقطع طيلة الفترة الحديثة، فالدراسة والتدريس في (رواق المغاربة) بالجامع الأزهر وفي (الزاوية المالكية) بالجامع الأموي والتعبد فيه، والالتفاف حول خيرة العلماء المشارقة، كان حلما يدغدغ المغاربة من العلماء، والمتلهفين على العلم، ويظهر هذا جليا مثلا في جواب العالم والأديب المغربي حسين بن قاسم الملقب بـ: حسام الدين المغربي الدرعي (ت 1011هـ/ 1603م) عندما سئل عن أسباب هجرته، ومجيئه إلى بلاد الشام، قال: "هذا أمر قدره الله، وكان في نفسي مشاهدة أفاضل الديار الدمشقية، والتعبد بالجامع الأموي حتى بلغني الله الأمل"، وبالإضافة إلى ذلك كله فبلاد المشرق الإسلامي غدت في العصر الحديث خاصة، طريقا لهؤلاء المغاربة الوافدين، توصلهم إلى بلاد الدولة العثمانية في آسيا الصغرى وأوروبا، التي اشتهرت هي الأخرى آنذاك بمدارسها التي أنشأها سلاطين بني عثمان، لاسيما في بورصة وإسطنبول(الصباغ، ليلى، جانفي، 1977: 83).

لقد عُرِفَ الوافدون المغاربة على البلاد العثمانية بالمشرق بالأمانة، وصار لهم فيها ذكر، فتسلموا الكثير من الأعمال التي

تستوجب تلك الصفة، ولاسيما التعليم والتأديب في العصر الحديث. وكان المشارقة من جانبهم معجبين بإخوانهم المغاربة الطارئين عليهم، سواء كانوا طلبة علم أو علماء، فهم يرونهم يقطعون الفيافي، وينتقلون بين القاهرة ودمشق، ومكة والمدينة، وطرابلس والقدس وحلب، واسطنبول وبورصة، لينالوا علما أو يلتقوا بعالم غير عابثين بأمور الدنيا ومشاقها، فأكبروا فيهم تلك الهمة وفتحوا صدورهم لهم، ولعلمهم سلموهم تأديب أطفالهم، والإشراف على خزائن الكتب والتدريس والوعظ في المدارس والمساجد، وأسند لهم الإفتاء على المذهب المالكي بل الحنفي أيضا، ونصبوا نيابة القضاء ونظارتها ومهام دينية أخرى، نستشف ذلك من كلام ابن بطوطة (ت1368م) الذي لخص بعض الأعمال التي أسندت إليهم بقوله: "وأهل دمشق يحسنون الظن بالمغاربة ويطمئنون إليهم بالأموال، والأهل والأولاد، وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق، لا بد أن يأتي إليه وجه من المعاش، من إمامة مسجد أو قراءة مدرسة، أو ملازمة مسجد، يجيء إليه فيه رزقه، ...، أو كفالة صبيان يغدو معهم إلى التعليم ويروح، ومن أراد طلب العلم والتفرغ للعبادة، وجد الإعانة التامة على ذلك"(الصباغ، ليلى، جانفي 1977: 83 -86).

ولعل الملفت للانتباه، أن الدراسات التي تناولت الحياة الأدبية في الولايات العربية، قد أكدت أن الإدارة العثمانية لم تقف حائلا البتة أمام تنقل الأشخاص والأفكار والكتب والمخطوطات (التميمي، عبد الجليل، نوفمبر 1986: 98) فقد كان يصل إلى علم المغاربة أنباء عن رجال العلم وشيوخ التيارات الفكرية والكتب الجديدة التي كانت إسطنبول تزخر بها، بحيث استطاعت عاصمة الدولة العثمانية أن

تجلب إليها الاهتمام وتطلع زائريها دون استثناء عن الكم الهائل من مصادر العلم والمعرفة(التميمي، عبد الجليل، نوفمبر 1986: 96)، ثم إن معظم الوافدين من العلماء المغاربة إلى البلاد العثمانية في المشرق كانوا على المذهب المالكي، إلا أن قلة منهم تبنوا المذهب الشافعي أو الحنفي، وقد يكون ذلك نتيجة الاحتكاك الفكري بالعلماء في المشرق الإسلامي، وتحت تأثير الوسط الاجتماعي، وقد يكون التحنف قد جرى طمعًا في المناصب القضائية العليا في الدولة العثمانية، المقصورة على أتباع المذهب الحنفي الرسمي للدولة العثمانية (الصباغ، ليلى، جانفي 1977: 90)، نستخلص ذلك من كلام التمغروتي صاحب النفحة المسكية (ت 980هـ/ 1572) حين قال: "لقينا في هذه المدينة - اسطنبول - من فيها من الفقهاء والعلماء وأكثرهم حنفيون وبعض من وردها من فقهاء مصر الشافعيون، ...، وفقهاؤهم يدرسون فقههم والتفسير والنحو، ...، والبيان والبديع وعلم الكلام وغيرها، ...، والكتب بهذه المدينة لا تعد ولا تحصى ولا نهاية لها والخزائن والأسواق مملوءة بها، جلب إليها كتب من كل بلد، جلبنا منها ما يسره الله سبحانه من كتب مفيدة"(التميمي، عبد الجليل، نوفمبر 1986: 96).

وأما عن مكانة العلماء المغاربة في المشرق فقد وصل بعضهم إلى مصاحبة السلاطين والأمراء، من ذلك مجالسة ابن معطي الزواوي (1168 - 1169م -1245م) الملك العالم عيسى بن محمد الأيوبي المتوفى سنة 624هـ/1227م، الذي استقبله وقربه منه وأجزل له العطاء، ولما تولى الملك الكامل سلك في معاملته لابن المعطي على نفس نهج سابقه (شباب، عبد الكريم، 2016: 241 -240).

في المقابل نجد أن المشارقة استمعوا بشغف إلى دروس العلماء المغاربة، وقد وصف محمد بن خليل المرادي صاحب كتاب سلك الدرر (ت 1206هـ/1791م) العالم محمد بن محمد الحسيني المغربي الشهير بالبليدي (ت1167هـ/ 1753) أنه كان يحضر درسه عن (تفسير البيضاوي) في جامع الأزهر أكثر من مائتي مدرس ومعيد، في حين أن محمد بن الطيب الفاسي الشهير بابن الطيب من العاملين في ميدان اللغة العربية، (الصباغ، ليلى، جانفي 1977: 86 -90) كان على صلة وثيقة بالشيخ المرتضى الزبيدي شارح كتاب القاموس الذي مدحه بالقول: "ومن أجمع ما كتب عليه مما سمعت ورأيت شرح شيخنا الإمام اللغوي أبي عبد الله محمد بن الطيب الفاسي المتولد بفاس سنة (1110هـ/1698م) والمتوفى بالمدينة المنورة سنة (1170ه/1756م) وهو عمدتي في هذا الفن، ...، وشرحه عندي في مجلدين ضخمين"(الفاسي، محمد، 1976، 84 -85)، وروى عنه عبد الحي الكتاني (ت1382هـ/1962م) صاحب فهرس الفهارس أنه صاحب بالمشرق ما يربو عن مائة وثمانين شيخا عالما، ولما رجع إلى فاس انكب على التدريس والتأليف واشتهر حتى ذاع صيته في المغرب، فأقبل عليه الطلبة من كل حدب وصوب، فصار بلا منازع إمام عصره، غير أنه فكر في مغادرة المغرب مرة ثانية قاصدا البقاع المقدسة ومصر والشام والعراق، أين مكث في مكة سنتين، وختم بالمسجد الحرام كتب الصحاح الستة وغيرها من كتب أصول الحديث، ولا يعرف المؤرخون هل كان ابن الطيب الشرقي ينوي البقاء نهائيا في البلاد المشرقية عند مغادرته أرض الوطن أم أن فكرة البقاء راودته وهو بالمشرق؟ لكن الواقع أنه بعد أن طاف بمختلف مراكز العلم، استقر به المطاف

بالمدينة المنورة واتخذها وطنا، ومنها انتشر صيته وصار مقصدا لمختلف طلاب العلم خاصة في مواسم الحج (الفاسي، محمد، 1976، 84 -85).

يوافقه في ذلك علي بن ميمون المغربي الأندلسي(854 -917هـ/ 1450 -1511م) الذي أقام ببورصة في أواخر القرن 16م، والحسين بن القاسم الدرعي أحد قضاة سلا الذي زار تركيا والأناضول أثناء أدائه لفريضة الحج، ومحمد الغراري أحد علماء سوس زار الأناضول أيضا، ومحمد بن علي الفشتالي أحد كبار الكتاب ومن الشعراء المتميزين وكاتب في بلاط السلطان أحمد المنصور السعدي، الذي أدى أكثر من مهمة لدى الباب العالي (التميمي، عبد الجليل، نوفمبر 1986: 97).

في حين أننا نجد أحمد بن ناصر الدرعي شيخ الزاوية الناصرية بالمغرب قد زار المشرق العربي قاصدا البقاع المقدسة في ثلاث رحالات لأداء فريضة الحج، في السنوات (1096هـ -1109هـ/1684 -1696م) (1121هـ/1709م) إضافة إلى حجته ضمن ركب والده سنة(1076هـ/ 1666م)، وفي كل رحلاته كانت له صلات وثيقة بعلماء المشرق، وبلغ من التأثير في المشارقة على ما ذكره صاحب الدرر المرصعة: "كانوا يأخذون عن شيخ أحمد بن ناصر الورد ويدونوه ويدونون الزمان والمكان(عمالك، أحمد، 2012: 69)، ويضيف صاحب الدرر المرصعة قائلا: "لما دخل الشيخ المدينة المشرفة في حجته الأخيرة جلس تجاه الحجرة الشريفة والناس يزاحمون عليه لأخذ العهد وتلقين الأوراد. هذا وكان للشيخ في رحلته عدد من الطلبة يقرؤون عليه ويعودن إليه في الأمور التي تتعسر عليهم من مسائل العلم (الناصري، محمد المكي، 1322هـ: 90 -91). كما كان العلماء من المشارقة حريصين على الإجازة منه، من أمثال محمد البقري بمصر، وعبد الله ابن سالم

البصري بمكة المكرمة والملا إبراهيم بن الحسن الكوراني بالمدينة المنورة.(عمالك، أحمد، 2012: 105 -106).

وفي المقابل الشيخ استجاز الشيخ أحمد بن ناصر عدد ممن لقيه في رحلته من العلماء، قال صاحب الدرر: "ورحل إلى المشرق فأخذ عن الملا إبراهيم بن حسين الكوراني وأجازه وأخذ بمصر عن الشيخ الفضل(كذا) وعن أبي العز بن أحمد العجمي، وأجازه أيضا الشيخ عبد الله بن سالم البصري وأشياخه بالإجازة من أهل الشام والحجاز يطول تتبعهم، وكانت له مشاركة في القراءات وعلم الرسم، تلقى ذلك عن عدة مشايخ زيادة على بعض ممن تقدم: كالفقيه أبو عبد الله محمد العرب المصري وأجازه في ذلك، وافق في التوقيت في الفرائض عن أبي الحسن الزعتري المصري الشافعي، أخذ عنه بمنزلة القاضي، وعن أبي عبد الله محمد بن عبد المؤمن الدرعي وبقية أسانيده في الكتب الإسلامية والدواوين العلمية تطلب من فهارسه وكان أبوه إستخلفه على القيام بزاويته وأذن له في تلقين الأولاد(كذا)"(الناصري، محمد المكي، 1322هـ. ص:89).

فضلا عن هذا كان للشيخ أحمد بن ناصر بالحجاز أتباعا كانوا على طريقته، فكانوا معلمين في صورة مقدم طريقة دورهم نشر الطريقة وتعاليمها في المشرق، ومن هؤلاء الشيخ محمد الأخصاصي بالمدينة المنورة، ومحمد بن منصور السفطي بمصر وغيرهم(عمالك، أحمد، 2012: 91).

وفي سياق الحديث عن العلماء دائما نذكر أحمد المقري التلمساني (ت1041هـ/1631م) وأبي راس الناصري (ت1150هـ/1824م) والحسن الورثلاني (ت 1193ه/ـ1779م)...، الذين امتزجت رحلاتهم

العلمية في تركيبتها بين المفاهيم العلمية والثقافية في شكل حركية علمية، كانت أقرب ما يكون إلى برنامج علمي تناولوا فيه مجالس العلم ولقاء الشيوخ ومدارستهم لهم وحلقات العلم والإجازات، من ذلك ما جاء على لسان أبي راس الناصري حين أجازه أبو الفيض الإمام المرتضى، وقرأ عليه صحيح البخاري، ومسلم...، وكانت إجازته هذه مكتوبة؛ ومثله المقري صاحب نفح الطيب الذي أجازه بمصر أحمد بن عبد الرحمان الصديقي المالكي بتاريخ 12 ربيع الأول سنة (1029هـ/1619م)، ونص هذه الإجازة: "أجزت له بما رويته وأخذته واستندت عليه، واعتمدته عن السلف العظام والسادة الأعلام مشايخ الإسلام من مرويات ومسموعات ومصنفات ومجموعات إجمالا وتفصيلا أصولا ومعقولا، عموما وخصوصا..."(لبصير، سعاد، 2017: 97 -98).

هذا وتعد رحلة المقري أول رحلة في القرن 11هـ، وسمها صاحبها بـ"رحلة إلى المشرق والمغرب"، وذكر فيها من لقيهم من أهل العلم في حواضر العلم الكبرى والدروس والمناظرات والإجازات التي كانت بينه وبين الكثير من أهل العلم(ربوح، عبد القادر، 2018: 300)، من ذلك إجازة الشيخ عبد الباقي الحنبلي الدمشقي، والشيخ مسعود الرشيدي بثغر الرشيد، وأيضا الشيخ أحمد بن القاضي شهاب الدين العجم بإجازتين، كانت الأولى سنة (1033هـ/1622م)، وأجازه الشيخ علي الصعيدي في الأزهر في التأليف بمقدمة شرح السنوسي، وأجازه أيضا الشيخ الفيومي، كما تصدر المقري للتدريس في كبريات المساجد والمراكز العلمية بالمشرق، فقد ألقى عددا من الدروس في الفقه والتفسير والحديث، بالحرم المكي والمسجد النبوي وبالأزهر، وقد

أثنى عليه العلماء والشيوخ بالمدح والتبجيل، كقول قاضي القاهرة حينها: "...، واستبشرنا من أنفاس معارفنا بعدد دروس قد درست فدعونا الله تعالى أن يديم إقامته بهذه الديار نفعا للطلبة، بل للعلم والأبرار..."، ولم تك دمشق هي الأخرى لتستغني عن دروس المقري في رحلته هذه حين زارها ودرّس بجامعها الأموي: "فلم يتفق لأحد من العلماء الذين زاروا دمشق من قبل ما اتفق له من الإقبال والقبول..."، وقد حضر دروسه الآلاف من عامة الناس ومن العلماء، إذ كانت الدروس تعقد من طلوع الشمس إلى قرب الظهر، وكانت الختمة من الأيام الخالدة في الشام، وفي الحقيقة إنّ هذه الإجازات والمناظرات والدروس المتبادلة بين العلماء تعبر عن مجموعتين حضاريتين، كل مجموعة تريد الإطلاع على حضارة مجوعة أخرى، الأمر الذي يتطلب بصورة حتمية استعارة حضارية متبادلة، ومثاقفة علمية وفكرية(لبصير، سعاد، 2017: 97 -98).

إن أكثر ما كان يجلب اهتمام العلماء والمشايخ نحو بلاد المشرق بعد فريضة ولقاء العلماء، حواضر العلم، من ذلك اسطنبول التي كانت عاصمة للعالم الإسلامي، والتي سعت ابتداء من سنة (1139هـ/1726م) في إدخال المطبعة بالحروف العربية، وهذا ما جعل زوارها وعلى الخصوص المغاربة مندهشين لوفرة الكتب والمكتبات والمساجد التي تعج بالكتب النفيسة النادرة والمخطوطات والعلماء (التميمي، عبد الجليل، نوفمبر 1986: 103)، لا يضاهيها في ذلك إلا مصر التي كان للمغاربة بها رواق خاص حمل اسمهم، وقد تأكدت مكانة القاهرة العلمية خلال العهد المملوكي وكذا العصر العثماني كأكبر مراكز للثقافة والحضارة العربية، وقلما يعثر الباحث على واحد من

عشرات العلماء وطلاب العلم المغاربة الذين أتوا إلى المشرق دون أن يستقر في مصر ليلقي الدروس أو يتلقى علما في مراكزها العلمية وفي مقدمتها الأزهر الشريف، أو يحصل على إجازة من أحد علمائها وشيوخها(عبد المعطي، حسام محمد، 2002: 89 -90).

وفي هذا الصدد تجمع المصادر أن رواق المغاربة صار بمثابة مؤسسة ثقافية اجتماعية تقدم خدماتها لأبناء الجالية المغاربية في مصر والقاهرة خاصة، وكان الرواق يتكفل بصرف مرتبات طلاب العلم والعلماء المغاربة من مختلف مناطق المغرب العربي من طرابلس إلى المغرب الأقصى، من أصحاب المذهب المالكي الوافدين إلى القاهرة والأزهر الشريف، على أن مداخيل الرواق كانت تأتي من الدعم الخيري الكبير الذي كان يقدمه التجار المغاربة لطلاب العلم والعلماء الوافدين إلى الأزهر ومدن مصرية أخرى، خاصة مؤسسة أوقاف المغاربة(عبد الرحيم، عبد الرحيم، 1982: 100 -105).

إن المتتبع لحياة العلماء المغاربة الذي درسوا في الأزهر أو في المدارس العلمية الأخرى بمصر، يلحظ مدى العطاء العلمي الذي قدموه للحياة الثقافية في مصر والوطن العربي مشرقا ومغربا، وهذا لوفرة سلسلة العلماء وعددهم الكبير الذين تخرج على أيديهم الكثير من طلاب العلم والعلماء المصريين، وأغلب العلماء المغاربة حازوا مناصب علمية كبيرة في مصر خاصة التدريس في الأزهر ومدارس أخرى، ومنهم من وصل إلى منصب الإفتاء، كالشيخ محمد حسن الجزائري (ت 1187هـ/1773م)، الذي لازم الشيخ حسن المقدسي مفتي الحنفية، ودرس عليه متون الفقه، وحضر دروس "المعقول" للشيخ الصعيدي والشيخ البيلي والشيخ محمد الأمير، ومنهم الشيخ أبو العباس

الجزائـري المغربـي المتـوفى في 21 شـعبان 1202هـ/27 مـاي 1788م، والشيخ أبو الحسن بن عمر القلعي بن علي المغربي المالكي توفي سنة 1199هـ/1785م، والشيخ أحمد التونسي توفي سنة 1133هـ/1721م، والشيخ سليمان الباروني المغربي التونسي، والشيخ محمد التونسي الكاتب (عبد الرحيم، عبد الرحيم، 1982: 100 -105)، والشيخ محمد بن الحسين ابن العطار: تولى مشيخة الأزهر الشريف عام 1246هـ/1830م، كان من أهل المغرب، وكان أبوه عطارا في القاهرة، نبغ ابن العطار في العلوم الشرعية وانكب كذلك على دراسة العلوم العصرية كالفلك والهندسة والجغرافيا، واتصل بعلماء الحملة الفرنسية فتعلم لغتهم على ما ذكره الجبرتي، وقبل توليه مشيخة الأزهر أسندت إليه جريدة "الوقائع المصرية" عام 1250هـ (1833م) وخلال فترة إشرافه على هذه الجريدة، دعا من خلالها حكام مصر إلى الاهتمام بالعلوم الحديثة وبعث التراث العربي، ومنه تلقى العالم المصلح رفاعة الطهطاوي صاحب كتاب "تخليص الإبريز في أخبار باريس"(الخطابي، محمد العربي، 1983: 14).

إنّ الدور الكبير الذي قام به هذا العدد الغفير من العلماء المغاربة في مصر وتأثيرهم الكبير في المشرق والمغرب على الحياة العلمية والثقافية خاصة في العهد العثماني(عبد الرحيم، عبد الرحيم، 1982: 107)، لم يمنعهم من الاطلاع الواسع عن الحياة الاجتماعية للمجتمع المصري، نتيجة الاحتكاك المتواصل مع المصريين، من ذلك ما كان من تواصل بين أبي القاسم الزياني وعبد الرحمان الجبرتي، الذي أعطاه فكرة أشمل عن حياة المصريين كما جاء ذلك على لسان

الزياني في كتابه الترجمانة (يونان، لبيب رزق، 1982: 125،126 - 206،207).

وفي السياق دائما نجد الشيخ التاودي ابن سودة، الملقب بالتاودي تيمنا بالشيخ عبد الله التاودي من رجال القرن السادس(التازي، عبد الهادي، 1983: 11) قد رحل إلى المشرق قصد الحج والاتصال بشيوخ العلم والتصوف وذلك سنة (1191هـ/1778م)، فكانت رحلته رحلة حج وعلم ووسيلة لنقل الطرق الصوفية والمؤلفات الدينية إلى المغرب، في محاولة لربط المعرفة المحلية بالمعرفة الإسلامية الشاملة (ابن سودة الوزير، محمد، حويلية 2016: 20).

ومما يوضح الدور العلمي الرائد للشيخ التاودي ابن سودة، هي تلك الدروس الحافلة التي كان يعقدها بالجامع الأزهر بالرواق حول الفقه المالكي في جموع حاشدة من الطلاب ومن العلماء (التازي، عبد الهادي، 1983: 11)، فقد درّس كتاب الموطأ للإمام مالك بجامع الأزهر، وعنه يقول ابن سودة في فهرسته: "لمّا منّ الله سبحانه على العبد بالرحلة لأرض الحجاز، وظفر بزيارة الحرمين، نزل أرض مصر، فلقي من فقهائها وأئمتها وقدوتها من يشار إليه بالنبل في العصر، فطمعت نفوس طائفة لها بالعلم اعتناء، وفي الأخذ عن مشايخ المغرب رغبا، أن أقرأ لهم من كتب الحديث ما تيسر، وإن كنت في الحقيقة على جناح سفر، فأجبتهم بعد الاستخارة وموافقة الأقدار وأجمع الأمر على قراءة الموطأ بالجامع الأزهر"(بن خضرة، عثمان، 1991: 5).

وفي هذا السياق سنحت الفرصة للشيخ التاودي ابن سودة أن يلتقي بالشيخ المتقي، ويتأثر به ويكتب عنه منظومة شعرية تعرف "بالصلانية"، جاء بها إلى المغرب وعرضها على السلطان محمد بن عبد

اللّه، الذي نوه بشأنها، وكتب عدة نسخ منها ليوزعها على مدارس المغرب ومساجده (يونان، لبيب رزق، 1982: 128،125 -207،206).

كما سمحت له الفرصة كذلك للاحتكاك بشيخ الطريقة النقشبندية عبد الرحمان بن محمد الحسيني، وعنه قال الشيخ التاودي: "وألبسني الخرقة، وأخذت عنه الطريقة النقشبندية، وأجازني بجميع ما له من العلوم وطرق القوم (ابن سودة الوزير، محمد، جويلية 2016: 20)، وكانت المناسبة مواتية كذلك للشيخ التاودي أن يلتقي بالشيخ الجبرتي ويتلقى عنه بعض الرياضيات(التازي، عبد الهادي، 1983: 11).

وفي الشيخ التاودي أنشده الحافظ الزبيدي قائلا(ابن سودة الوزير، محمد، جويلية 2016: 20؛ الكتاني، عبد الحي، 1982: 257):

ومنهم محمد بن الطالب * التاودي العدل ذو المذاهب

رئيس فاس كاشف الغيوم * وعالم المنطوق والمفهوم

إليه في بلاده يشار * عليه في المعارف المدار

صحبته في مصر في وفادته * فجاد بالكثير من إفادته

أجازني بكل ما يرويه * من كل ما يفيد أو يمليه

الأعمال التجارية:

تذكر المصادر أن المغاربة كان لهم حضور كبير في تجارة المشرق في البلاد العربية وحتى في شرق آسيا في الصين والهند، على الرغم من الأخطار التي لحقت بالتجارة المغربية والمشرقية على حد سواء، إثر انقطاع طرقها خاصة في نهاية القرن 5هـ باحتلال الصليبيين

لبيت المقدس سنة 491هـ/1098م ومدن مشرقية أخرى، بحيث تحولت الطرق الرئيسية من الإسكندرية إلى جدة وعدن والهند، ولم تنته هذه الاضطرابات بل تواصلت مع الغزو المغولي للبلاد العربية في القرنين 7هـ/13م و8هـ/14م، وقد ميز هذه الحقبة الصلات التجارية بين بلاد المغرب والشرق الأقصى عبر التجارة البحرية بامتياز فقد كانت تمرّ بالضرورة عبر موانئ الإسكندرية وجدّة فعدن وصولا إلى الصين(بن ميلاد، لطفي، 2017: 223 -238).

أما في الفترة الحديثة فقد زاد النشاط التجاري للمغاربة عامة والجزائريين خاصة تجاه المشرق، نظرا لكثرة الغارات الأوربية على السواحل المغاربية فاتخذوا من المدن المشرقية في كل من مصر وسوريا وأزمير مراكز تجارية لهم، واحتلت الإسكندرية مكانة هامة كونها تتوسط المشرق والمغرب، وهناك استأجر التجار المغاربة المحلات والوكالات والمخازن لتخزين السلع القادمة من مختلف الجهات المشرقية(شويتام، أرزقي، 2005 -2006: 246)، فكانوا يستوردون من القاهرة البن والأرز والأقمشة، ويصدرون إلى أزمير الخدم والحياك الصوفية والمواد الغذائية، على أنّ أكثر السلع التي لقيت رواجا كبيرا في المشرق هي الأحزمة الجزائرية المصنوعة من الحرير، نظرا لجودتها العالية، وفي عام 1091هـ/1680م حظي الجزائريون بامتيازات من طرف السلطان العثماني تخص النقل والسفر والإقامة وكذا الإعفاءات الجمركية مقابل ترويجهم لسلعهم الجيدة، ناهيك عن مكانتهم التجارية في المشرق والإسكندرية خاصة(شويتام، أرزقي، 2005 - 2006: 246).

وللعلم فإنّ الجزائر عندما ارتبطت بالدولة العثمانية من الناحية السياسية، ارتبطت بها كذلك اقتصاديا، مما فتح مجالات أوسع في العلاقات التجارية بين الجزائر والمشرق الإسلامي، لاسيما مع مصر وبلاد الشام واسطنبول، وقد زادت هذه الصلة بصفة خاصة بعد ضم الدولة العثمانية لتونس سنة 1574م، لكن بالمقابل هناك تأثيرات سلبية كانت تلحق الضرر اقتصاديا بالجزائر والإيالات العثمانية في شمال إفريقيا، كلما تأثرت اسطنبول بظروف سياسية أو اقتصادية واجتماعية صعبة، أو تمر بحالة ضعف. (بن خروف، عمار، 2008: 38).

الجدير بالذكر أن عددا لا يستهان به من التجار اليهود المغاربة قد أدوا دورا بارزا في الوصول بالتجارة المغاربية إلى البحر الأحمر والهند، فقد اشتغل معظمهم كوسطاء أساسيين في جلب البضائع الشرقية الثمينة إلى بلاد المغرب، وربما كان هذا بدعم كبير من نظام الخلافة الإسلامية خلال القرن 4هـ/10م، فيما عرف بتجارة الرهادنة، لكننا سنشهد بين 443هـ/1050م و547هـ/1150م قرنًا بأكمله أقل ما يمكن أن يقال عنه إنّه شكّل مناخًا مضطربا مشحونا بالتوترات، دفع اليهود في الحوض الغربي للمتوسط وأجبرهم على نقل رؤوس أموالهم إلى الفسطاط ومن هناك إلى عدن والهند(بن ميلاد، لطفي، 2017: 223 -238).

وفضلاً عن ذلك، فإنّه من غير اللائق ربط تجارة المحيط الهندي بنقل رؤوس أموال اليهود المغاربة إلى هناك، فمن المؤكد أنّ التجارة المغاربية الإسلامية نحو الشرق الأقصى وجدت قبل ذلك بكثير، ونعتقد أنّ المغاربة من غير اليهود كانوا قد ساهموا فيها بالفعل واشتركوا مع المشارقة وخاصة التجار المصريين، حيث كانت

بضائعهم تمر من عدن إلى الإسكندرية فبلاد المغرب، وبينما كان الكثير من المغاربة قد استقروا نهائيًا في المشرق للعلم ومجاورة الحرمين الشريفين أو التجارة بالحجاز وحتى اليمن منذ مدّة، فقد استفادوا كذلك من هذا الموقع لممارسة التجارة في البحر الأحمر، من ذلك قدوم الأديب الشاعر أبو العباس أحمد ابن محمد الأبي إلى اليمن تاجرًا، ثم غادرها إلى مصر أين استقر بالإسكندرية، ولسنا متأكدين من أنه بقي هناك أم عاد سنة 597هـ/1201م، كما سافر ابن المجاور سنة 618هـ/1222م في سفينة الخواجا نجيب الدين ابن أبي القاسم البجائي، وكذلك أمين الدين بن العالمة من أصل مغربي (ت669هـ/1270م)، وكذلك محمد القسطلاني (عاش بين 691هـ - 751هـ/1291م -1353م)، الذي كانت "تجارته بين مكة ومصر"، بينما استقر عبد الله بن يوسف التلمساني بعدن، حيث امتلك العديد من المراكب، وكذا أحمد بن قاسم الفزاري الطرابلسي، المتخصص في تصدير المرجان إلى الإسكندرية، ارتحل للمرة الثانية سنة 866هـ/1472م إلى الهند ويبدو أنّ ثروته قد كبرت فانتقل إلى اليمن للاستقرار، ومن المؤكد أنّ وجود تلك النخبة العالمة في مناصب القضاء والإفتاء والعلم بالحجاز جعلها تستفيد من علاقتها بكبار الأمراء والتجار، خاصة خلال القرن 9هـ/15م(بن ميلاد، 2017: 223 -238).

الجدير بالذكر كذلك أنّ دفاتر المحاكم الشرعية بمدينة بورصة على سبيل المثال في أواخر القرن الخامس عشر أكدت عن وجود عدد كبير من التجار والزوار المغاربة الذين استقروا بها وقاموا بأنشطة تجارية واقتصادية، أبان هذا على أن هذا التبادل العثماني المغربي قد أصبح سهلا نتيجة هيمنة انجلترا وهولاندا على الخطوط

البحرية، ثم ألم يكن ميناء طنجة مركزا تجاريا عالميا في اتجاه أزمير واسطنبول؟(التميمي، عبد الجليل، نوفمبر 1986: 97).

وفي هذا الصدد نأتي إلى ذكر الدور الكبير الذي لعبه التجار المغاربة المستقرون بمصر والتجار المصريون في تعليم الحجاج المغاربة التجارة دون قصد، فبمجرد نزول قوافل الحج المغربية أرض الكنانة حتى يسارع التجار لعقد الصفقات مع الحجاج، قصد بيع سلع لهم في الحجاز إذا هي كانت متوجهة لبلاد الحرمين مقابل 10٪و 15٪الأرباح، والكثير من هؤلاء الحجاج بعد أن تعلموا التجارة فضلوا الاستقرار بمصر(عبد المعطي، حسام محمد، 2002 :82 -84)، ونتيجة لذلك أنشئت الوكالات التجارية التي أسستها الكثير من الأسر المغربية في كل من القاهرة والإسكندرية، والتي كانت تقوم بالمتاجرة في مختلف أنواع السلع التي احتكرها التجار المغاربة كالحاج عبد الرحمن بن الحاج محمد الشهير بالحلو المغربي الفاسي الذي كان يشرف على وكالة الماوردي التجارية بشارع الفحامين بالقاهرة، ووكالة المرجان بالقاهرة التي احتكرتها أسرة السقاط بن الحاج محمد المغربي الفاسي، وكانت الوكالة تتاجر في استيراد المرجان، هذا بالإضافة إلى العديد من الوكالات التي حملت أسماء أصحابها مثل وكالة الشيرابي التي سميت باسم شيخ أسرة الشيرابي المشهورة في تاريخ مصر الاقتصادي، وكذلك وكالة السيد أحمد المراكشي، ووكالة فتح الله الناضوري...، وهكذا أصبحت الوكالات التجارية والمهنية تمثل شكلا من أشكال التنظيم المغربي التجاري داخل المدن المصرية(عبد الرحيم، عبد الرحيم، 1982: 64 -65).

وأمام أهمية السوق المصرية، فإن أرباحا طائلة كان يجنيها التجار الفاسيون على سبيل المثال، وكان لبعضهم أرقاما تجارية كبيرة في السوق المصرية تتراوح ما بين 20.000 و60.000 فرنك سنويا، فالعربي لحلو مثلا تجاوز رأسماله 500.000 بسيطة، وعبد السلام المراكشي 100.000 بسيطة، ومحمد بن البدوي برادة مثل ذلك (قرنفل، حسن، 1989: 54).

ولعل أبرز تاجر في القاهرة في منتصف القرن 19م كان من أسرة ابن شقرون، فنظرا لمصالحه التجارية الكبيرة تمكن من أن يصبح وكيلا للمغاربة في مصر، وبحكم منصبه هذا استحوذ على أملاك المغاربة المقيمين في مصر الذين أصابتهم المنية في أرض الكنانة، وبالرغم من أن المخزن طالبه مرارا بإرجاع هذه الأموال، إلا أنه رفض وتنكر لذلك بل إنه أفلت من العقاب بعد أن أصبح مصري الجنسية(قرنفل، حسن، 2007: 60 -61).

ونتيجة لاتساع دائرة نشاطهم التجاري، أصبح التجار المغاربة بمثابة عصب محرك للاقتصاد المصري، خاصة في القرن الثامن عشر، فقد تعددت نشاطاتهم الاقتصادية، وأصبحت الأسر التجارية الكبيرة بمثابة مصارف مالية كبرى، تقوم بعمليات الإقراض والشراء والبيع والرهن والاستبدال، حتى أن مصادر القرن الثامن عشر تجمع على أن الحاج محمد الدادة الشيرابي، أول مغربي في مصر أوجد الفائدة على عمليات المضاربة التي كان يقوم بها وأفراد أسرته في الكثير من مجالات التجارة والبيع والشراء والرهن في العقارات، وإسقاط الالتزامات، وذلك لعدم وجود نظام مصرفي مثلما هو الحال عليه اليوم.

وتحت تأثير هؤلاء التجار ووزنهم الاقتصادي في مصر، فإن حكام مصر ورجال الإدارة الأتراك، أصبحوا يدورون في فلكهم، وكثيرا ما كانوا يستجيبون لطلباتهم، كما أنهم وقفوا إلى جانبهم في الكثير من الأمور، وكانوا يتوددون إليهم ويتقربون منهم طمعا في أموالهم، ليس هذا فقط، بل أضحى أفراد من أسر هؤلاء التجار جزءا من الإدارة الحاكمة في مصر على إثر قبول اندماجهم في الكثير من الوظائف الإدارية والعسكرية على غرار الجيش(عبد الرحيم، عبد الرحيم، 1982: 79).

ونظرا لمركزهم الاقتصادي وتأثير على النظام الحاكم في مصر، فإنهم وقفوا إلى جانب الحاكم المملوكي طومان باي ضد سليم الأول عند دخوله مصر على ما تذكره المصادر، لذلك فكر هذا الأخير في خطورتهم، وبخاصة التنظيمات التجارية، فقام بإرسال فئة من التجار المغاربة إلى اسطنبول، من بين هؤلاء: الشيخ سالم والشيخ التاجوري، وسعيد اللبدي وآخرون كثر، ومنذ بداية القرن السادس عشر أخذ عدد المغاربة المقيمين في مصر يتضاعف، وكان لهم أثر في البنية الحضرية للمدن وكذا في مجالات مختلفة اقتصادية واجتماعية وغيرها، ونتيجة للنشاطات المتعددة للمغاربة في مصر وخاصة القاهرة، فإن أحياء كثيرة حملت أسماء كبار الشخصيات المغاربية الفاعلة(عبد الرحيم، عبد الرحيم، 1982: 49 -50).

إنّ التماس المغاربة للرزق في بلاد المشرق الإسلامي عبر التجارة لم يمنع من خروج بعضهم فقراء، نظرا للمجاعات التي كانت تفتك ببلاد المشرق، ونظرا للظروف التي كانت تحيط بالعالم الإسلامي من الصراعات والضغوط السياسية والعسكرية التي أثرت بصورة كبيرة

على الحياة الاقتصادية بوجه عام في المشرق والمغرب الإسلامي، لاسيما مع تدهور وضعية النشاط البحري الإسلامي الذي عجز عن توفير فرص عمل للمغاربة، في القرن 12ه/ 18م (الصباغ، ليلى، جانفي 1977: 92).

هذا وكان للمغاربة هيكل تنظيمي في القاهرة ومدن أخرى طبقا للنظام الذي كان سائدا في المجتمع المصري، أي أنه كان قائما على أساس طائفي، وكل طائفة تشتغل بعمل واحد، سواء كانت تجارة أم مهنة أو حرفة، وعلى رأس الطائفة شيخ يتحدث باسمهم، ويدافع عن حقوقهم أمام السلطات المصرية، وعلى سبيل المثال ووفقا لما جاء في وثائق المحاكم الشرعية، فإن المدعو الحاج سعيد كان شيخا لطائفة المغاربة بسوق طولون سنة 1152هـ/ 1740م، ومثله الخواجا المكرم الحاج أحمد، شيخ التجار بخط الغورية(عبد الرحيم، عبد الرحيم، 1982: 49 -50).

ونظرا لمكانتهم وثرائهم وتأثيرهم الاقتصادي والسياسي في مصر دائما، فإن نابليون بونابرت أثناء حملته على مصر وبتاريخ الخميس 2 ربيع الثاني 1213هـ/13 سبتمبر 1798م، أصدر أمر للجالية المغاربية والأغراب، بمغادرة مصر قبل ثلاثة أيام والعودة إلى بلادهم، حتى لا تطبق في حقهم العقوبات، غير أن المغاربة رفضوا الانصياع وفضلوا المقاومة(عبد الرحيم، عبد الرحيم، 1982: 49 -50).

وفي الوقت الذي اندلعت فيه شرارة الثورة، وبدأ الفرنسيون يضربون الثوار بالمدافع، قام الحجاج المغاربة، والمغاربة المقيمون بحي الفحامين والمجاورون للأزهر للذود عن البلاد وجعلوا من حيّهم قاعدة حربية حصنوها بالمتاريس وآلات القتال، وأخذوا يشنون منها الحرب على الفرنسيين، ولما كان الناس في حاجة إلى الدعم بدأت الناس

تتطوع، ومنهم من عمل على تجهيز جماعة المغاربة بالسلاح والأكل، وبذلت جميع الناس ما في وسعها من أجل تجهيز المتطوعين للجهاد(الجبرتي، عبد الرحمن، 1998: 8 -13).

ويذكر الجبرتي أن الفرنسيين لما استولوا على كوم أبي الريش بالقاهرة في 23 شوال 1214هـ/19 مارس 1800م، وانهزمت القوات العثمانية، قام المغاربة بمحاولة الهجوم على الفرنسيين، وطالبوا من أهل الحسينية بمؤازرتهم(الجبرتي، عبد الرحمن، 1998: 170)، ولضغطهم وقوتهم خاصة في صعيد مصر أين انظم إليهم جماعة من قبيلة هوارة البربرية ومن أهل الصعيد، وبعض الأتراك والمماليك وعدد من الحجازيين الوافدين إلى مصر من أجل الجهاد، أرغم نابليون لرفع الحصار عن مدينة عكا ورجوعه إلى مصر، حسب تصريح نابليون نفسه (طليمات، عبد القادر، 1961: 88 -94؛ الجبرتي، عبد الرحمن، 1998 :75)، وقد بلغ هاجس الخوف لدى الفرنسيين من المغاربة في استعمال ما لديهم من وسائل لثنيهم عن المشاركة في الجهاد، فقد منعوا الحجاج من ورود مصر، ولم يتوانوا في القبض على شيخ رواق المغاربة أبي القاسم المغربي، بتاريخ 24 ذي الحجة 1215هـ/8 ماي 1801م والزج به في السجن، وخوفا من إثارته للمغاربة وتحريضهم كما قاموا بتكسير محلات التجار المغاربة ونهب متاعهم واستعملوا عددا من الأسرى المغاربة ممن قدموا معهم من جزيرة مالطة كجواسيس لإتقانهم لغة القوم(الجبرتي، عبد الرحمن، 1998: 4، 49، 257).

خاتمة:

توجه المغاربة إلى بلاد المشرق لغايات وأسباب عديدة في هجرات متواصلة طيلة الفترة الممتدة من العصور الأولى للإسلام إلى الفترة الاحتلال الأوربي الحديث لبلاد المغرب، وتأتي الظروف والأوضاع السياسية التي عرفتها بلاد المغرب والمشرق معا في مقدمة الدوافع التي كان لها التأثير الكبير في الهجرة بحثا عن الأمن وهروبا من قساوة الظروف، فقد كانت بلاد المغرب عبر العصور مسرحا للصراعات والحروب، أما الغايات النبيلة التي كانت تشدهم للترحال والسفر فتتقدمها مناسك الحج وطلب العلم والتجارة والجهاد عندما كانت بلاد المشرق ساحة للحروب الصليبية.

وفي كل الأحوال كانت هجرات المغاربة إلى بلاد المشرق فرصة للاحتكاك بإخوانهم في المشرق والتأثر بثقافتهم والتأثير أيضا في المجتمع المشرقي في مناحي عديدة، بل إن عددا منهم صنع لنفسه اسما ومجدا خلدته كتب التاريخ، وأشاد به المشارقة قبل المغاربة، فبرز منهم القضاة والعلماء وكبار التجار والأسر الكبيرة صاحبة المراكز والنفوذ السياسي والمالي والعلمي.

هذا وقد شكل المغاربة في البلاد المشرقية قوة لا يستهان بها واجهت أعتى الجيوش الغربية المحتلة لاسيما في البلاد المصرية أيام الحملة الفرنسية، كما لعبت سياسة الدولة العثمانية دورا كبيرا في تسهيل حركة التنقل وهجرة المغاربة نحو المشرق، ولم تتوقف هجراتهم حتى إبان الاستعمار الحديث، وكان الجزائريون الجالية المغاربية الأولى التي شدت الرحال نحو المشرق هروبا من بطش المحتل أو نتيجة للنفي وهجرة القصرية.

قائمة المصادر والمراجع:

1 - إفرخاس محمد، نادية صلاح محمد صديق، (2016) **رحلات المغاربة إلى المشرق ودورها في تعزيز ثقافة التواصل**، الإمارات العربية المتحدة.

2 - بربروس خير الدين، (1431هـ/2010م.)، **مذكرات خير الدين بربروس**، ترجمة محمد دراج، ط1الجزائر العاصمة، شركة الأصالة للنشر والتوزيع.

3- التازي عبد الهادي،(رمضان 1403هـ/ ماي -يونيو 1983م)، "رواق المغاربة بالأزهر الشريف"، **دعوة الحق**،ع3،س24، الرباط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

4 - التميمي عبد الجليل،(نوفمبر 1986م)، "تاريخ العلاقات الثقافية بين إسطنبول والمغرب الأقصى خلال العصر الحديث"، **المجلة التاريخية المغربية**، السنة 13، العدد: 43 - 44، تونس، مؤسسة التميمي للبحث.

5 - الجبرتي عبد الرحمن،(1998.م)، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**،ج2، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، ، مصر، دار الكتب والوثائق القومية.

6 - بن خروف عمار،(2008)، **العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي**،ج2، الجزائر، الأمل للطباعة والنشر.

7 - بن خضرة عثمان، (أفريل 1991م)، "الشيخ التاودي ابن سودة، إمام فقهاء المغرب، اجتهاد في العلم والعبادة ومحبة آل البيت"، **دعوة الحق**، العدد 283، الرباط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

8- الخطابي محمد العربي،(1404/ ديسمبر 1983.)، "مصر والمغرب خواطر وذكريات،" **دعوة الحق**، ع7 س 24، الرباط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

9 - ربوح عبد القادر،(2018.م)، "الرحلة ودورها في التواصل الثقافي بين الجزائر والمشرق العربي خلال القرن 11هـ/17م، رحلة يحي الشاوي المليانى ت1096هـ/1685م أنموذجا"، **مجلة البحوث والدراسات**، المجلد 15 العدد 1، الجزائر.، جامعة الوادي.

10 - رزق يونان، لبيب محمد مزين، (1982)، **تاريخ العلاقات المصرية المغربية منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام 1912**، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

11 -سبقاق الطاهر، (2001م)،" إسهامات الجزائريين في الحقل الثقافي السوري بين 1332/1245هـ/ 1830 -1914م." **مجلة الواحات للبحوث والدراسات**، العدد11، الجزائر، جامعة ورقلة.

12- ابن سودة محمد الوزير، (جويلية 2016)، ابن سودة عبد الهادي، **مناقب بني سودة**، المغرب.*related:www.elkhadra.ma/Manakib.doc*

13 - شباب عبد الكريم، (2016م)، "الإشعاع العلمي لعلماء المغرب الأوسط في بلاد المشرق الإسلامي - ابن معطي الزواوي نموذجا -، **مجلة المتون**، المجلد 8، العدد1، سعيدة.، الجزائر.، جامعة مولاي الطاهر.

14 -شرف موسى،(2017م) "أخبار العلم والعلماء بأرض الحجاز من خلال الرحلات المغربية رحلة أبي سالم العياشي وابن الطيب الشرقي والهلالي نماذجا"، **مجلة قضايا تاريخية**، ع7، الجزائر العاصمة، المدرسة العليا لأساتذة، بوزريعة.

15- شويتام أرزقي، (2005-2006)، **المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519- 1830م**، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ، جامعة الجزائر.

16 - الصباغ ليلى،(جانفي1977)، "الوجود العثماني في المشرق المتوسط في العصر الحديث"، **مجلة التاريخ المغاربية**، العدد: 7 -8 ، تونس، مؤسسة التميمي للبحث.

17 - طليمات عبد القادر،(كانون الثاني 1961)، "حملة نابليون على مصر ونداءات الجهاد العثمانية إلى مولاي سليمان"، **مجلة حضارة الإسلام**، المجلد 1، العدد 7، المطبعة التعاونية، دمشق، سوريا.

18 - عبد الرحيم عبد الرحيم، (1982م)، **المغاربة في مصر في العصر العثماني (1517 -1798)، دراسة في تأثير الجالية المغربية من خلال وثائق المحاكم**

الشرعية المصرية، د.ط، منشورات المجلة التاريخية المغربية، تونس، مؤسسة التميمي للنشر.

19 - عمالك أحمد، (2012م) **أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي، الشيخ الصوفي المصلح**، ط1، المملكة المغربية، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث.

20 - عبد المعطي أجمد حسام محمد، (2002) "البيوتات المغربية في مصر في العصر الحديث 1517 -1798)"، **مجلة التاريخ المغاربية**، العدد7 -8 القاهرة، مكتبة مدبولي.

21 - عيساوة محمد، (2017)، " هجرة الأندلسيين والمغاربة إلى بلاد المشرق مابين القرنيين الرابع والخامس الهجريين (10 -11م): قراءة في العوامل والأسباب"، **مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية**، جامعة نواكشط، موريتانيا .

22 - الفاسي محمد، (1976) "أبو عبد الله محمد بن الطيب الشرقي"، **مجلة المناهل**، العدد6، السنة الثالثة، الرباط، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية.

23 -قرنفل حسن، (1989)، "النشاط التجاري في مدينة فاس في القرن 19"، **أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب**، ج2، الدار البيضاء، المغرب. جامعة الحسن الثاني، عين الشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

24 - قرنفل حسن، (2007.)، **أهل فاس المال والسياسة**، ط1، دار أبي الرقراق، الرباط.

25 - الكتاني عبد الحي بن عبد الكبير (1982م)، **فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمسلسلات**، ج1، ط2، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

26 - لبصير سعاد، (2017)، "التفاعل الثقافي والعلمي بين الرحالة الجزائريين ونظرائهم من بلاد المشرق خلال العهد العثماني، **قضايا تاريخية**، العدد 8، بوزريعة، الجزائر ، المدرسة العليا للأساتذة.

27 - بن ميلاد لطفي، (2017)،" المغاربة وتجارة الهند من البحر الأحمر إلى المحيط الهندي والصين، **حوليات إسلامية إلكترونية**، ***Annales islamologique***" العدد 51. - ANNALES ISLAMOLOGIQUES
https://www.ifao.egnet.net ›

28 - الناصري محمد المكي، (1322هـ) **مخطوط الدرر المرصعة في أخبار أعيان درعة، ج1 وج2**، الدار البيضاء، المغرب، مكتبة مؤسسة الملك عبد العزيز.

29 - الهادي محمد الشريف، (1993م)، **تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الإستقلال**، تعريب محمد شاوش، محمد عجينة، ط3 ، تونس، دار سراس للنشر.